الرياض

حروف و افكار

القمة والسلام

منح الصلح

على هامش القمة يحق للبنان أن يفتخر بأنه كان باستمرار في الخندق الاول للدفاع عن العروبة كدعوة سياسية، وعن العربية كلغة ورسالة حضارية.

في كتابه "حياة في ذكريات" يروي الرئيس شارل حلو حواراً جرى بينه وبين الرئيس الفرنسي الراحل شارل ديغول. يقول ديغول لحلو: ليس لديكم قوة تتغلبون بها على اسرائيل فماذا أنتم فاعلون؟ يجيبه حلو: صحيح اننا غير قادرين على الحرب مع اسرائيل، لكننا لن نعقد معها سلاماً. يرد ديغول: لا تقدرون على الحرب ولا تقبلون بالسلام. انه منطق لا يمكنني ان أفهمه. يجيب حلو: إنك ابن مدرسة تؤمن بالمنطق الكارتزياني، وأنا لا أعتقد أن منطقكم الكارتزياني قادر ان يستوعب الحياة بكل ما فيها من تناقضات. السلام غير المطبّع شيء مقبول. اما السلم فمستحيل.

كأن الرئيس اللبناني الذي استطاع رياض الصلح اثناء إحدى وزاراته ان يجنده للقضية الفلسطينية بتعيينه مسؤولاً عن مكتب لها في باريس، انتهى به الامر في آخر المطاف لأن يعنى عناية فكرية جادة بالتمييز بين نوعين من السلام: السلام المبني على المنطق الكارتزياني، مذهب ديكارت المفتوح على التطبيع، والسلام غير المطبع المحكوم بظروف الصراع والمختلف عما يسميه هو، الرئيس السابق، السلم اي السلام المطبّع.

بعض ظرفاء السياسة اللبنانية يقول: رحم الله الرئيس الراحل ورحم الله الملوك والرؤساء اليوم اعضاء القمة الحالية في لبنان، اذ لو كان الرئيس حلو حياً لأخذ الجدل الكارتزياني من وقت القمة ما عطلها من ان تكون اول قمة من نوعها وهي قمة الاجتهادات الفلسفية التي يزول كل حرب وكل سلام ولا تزول.

غير ان الايام الحالية والمناقشات الدائرة حول القمة وفي معرض التحضير لها، اثبتت ان القضية الفلسطينية لا تزال تحتاج الى بعض الفلسفة لا كلها، لأنها، على ما يقول البعض، القليل منها معمّر والكثير منها مدمّر.

والواضح ان وزير الخارجية السعودية الامير سعود الفيصل ينتمي على الاقل في تصريحاته في القاهرة الى مدرسة شارل حلو القائلة بالسلام من غير تطبيع. ورحم الله المغفور له والده الذي ما كان يريده لا مطبعاً ولا غير مطبع، مع العلم ان جدول الأعمال الفعلي للقمة هو السلام ولو مراً ومن غير تطبيع بدون شك.

تكاد القمة تتحول قبل أيام من انعقادها قمة إنقاذ ما يمكن إنقاذه. فالتفاؤل الذي ساد لفترة بأن تأتي القمة على قياس الآمال الشعبية العربية وحجم التضحيات الفلسطينية قد تراجع، مبقياً للمفاجآت احتمال تغيير بعض تفاصيل الصورة. ذلك ان الولايات المتحدة لا تزال مصرة أن تبقي الجزء الذي تسيّره من العالم، وهو الاوسع والاقوى، في جو رد الفعل على احداث 11ايلول، دون ان تسمح على الاغلب بأن ينال الشعب الفلسطيني فوراً ونقداً وعداً دولته السيدة المستقلة.

ليس ما دعا العرب لاختيار بيروت مكاناً لانعقاد القمة مجرد الرغبة في اطلاق رسالة الى الغرب مفادها انه على الارض العربية امكن قيام وطن مفتوح على الثقافة العربية وعلى الاسلام والمسيحية معاً. فظاهرة الامتزاج الثقافي والديني في لبنان هي اهم واوضح واكثر طبيعية واشد تفاعلاً مع المنطقة من كل ما تحاول ان تدعيه اسرائيل من مفاعيل ترويض مستحيل للمنطقة.

لأمر ما كانت اسرائيل تعادي لبنان اكثر مما تعادي الكثير من الدول العربية. والسبب ليس فحسب ان لبنان كان دائماً مركز مقارعة منذ احتضانه للعمل الفدائي الفلسطيني الى ايام "حزب الله" بل لكون لبنان واحداً من الاوطان العربية بل والاجنبية الى حد بعيد الاكثر نجاحاً في احتضان التعدد، سواء المذهبي او الديني او العقائدي او الثقافي اللغوي من دون ان يكون هناك هيمنة لفكر واحد او اتجاه واحد.

فلبنان للمسيحي كما هو للمسلم، وهو للمسيحية بمختلف طوائفها كما هو للاسلام بمختلف مذاهبه. وهو للحضارة العربية خير جندي، بقدر ما هو مفتوح على الثقافات الغربية وفقاً للقاعدة الاستقلالية المنصوص عليها في اول بيان وزاري ميثاقي عام 1943من انه، اي لبنان، وطن عربي الوجه يستسيغ الخيّر النافع من حضارة الغرب.

كل ذلك جعل لبنان كما سنرى في القمة منبراً نموذجياً لإطلاق دعوة الذود عن المنطقة بمنطق السلام لمن اراد السلام، والمواجهة لمن اراد المواجهة.

وإنما حرب اكتوبر الناجحة عام 1973التي قادها انور السادات وحافظ الأسد اسمت نفسها معركة الحرب والسلام.

ويومها اشترك لبنان في هذه الحرب بجماع قلبه، وإن ايضاً بمحدود امكاناته. فالحادثة مشهورة حين عقدت حكومة تقي الدين الصلح جلسة شهيرة في القصر الجمهوري اللبناني افتتحها الرئيس سليمان فرنجية انه في هذا اليوم يجسد اثنين عظيمين هما القائدان اللذان توليا حرب تشرين ـ اكتوبر.

طبعاً ليس لبنان البلد النموذجي للحروب في الكثير من نواحي حياته. ولكنه بالقطع البلد العربي الاقدر على الاعتزاز بخدمة القضية العربية عن طريق تجربة التعايش الوطني والديني الذي يستحيل عليه ان يخرج منها او عليها.

على هامش القمة يحق للبنان ان يفتخر بأنه كان باستمرار في الخندق الاول للدفاع عن العروبة كدعوة سياسية، وعن العربية كلغة ورسالة حضارية.

ورحم الله نقيب الصحفيين العرب أحمد بهاء الدين الذي في احدى زياراته الى لبنان الذي كان يحب، دُعي الى حفلة تكريمية اقيمت له في احد فنادق رأس بيروت الكبرى. وكان بين المكرمين ايضاً شاعران لبنانيان كبيران آتيان من المهجر اللبناني الامريكي ـ الجنوبي، وهما رشيد سليم الخوري، الشاعر القروي، والياس فرحات، وكلاهما من عمالقة العربية والعروبة معاً. فلما دخل القاعة فقيد السياسة اللبنانية المرحوم ريمون إده وكان وزيراً للداخلية ثم انطلق على طريقته يدافع بلبنانية عامية مطرزة بكلمات فرنسية عن العمل الفدائي الفلسطيني، ظهر الانبهار والإعجاب مرتسماً على وجه احمد بهاء الدين، فقال لمن حوله مأخوذاً بحماسة هؤلاء الثلاثة المتباعدين في اشياء كثيرة والمتحدين في حب الحرية والتمسك بالكرامة: بارك الله لكم في وطنكم هذا لبنان الذي تجتمع فيه عزيمة النهضة وحمية الكرامة مع عروبة السياسة، وعروبة اللغة.

فما أحوج العرب وما أحوج قضاياهم لهذا الفصيل النابه من الأمة الذي هو اللبنانيون الناطقون بكل لغة.

وقد كان الشعور بذلك واضحاً في الدورة العادية الـ 117لوزراء الخارجية العرب في القاهرة الذين ابرزوا ايجابيات انعقاد القمة في بيروت في 27و 28اذار، مؤكدين على اقتراحات ولي العهد السعودي النائب الاول لرئيس مجلس الوزراء رئيس الحرس الوطني الامير عبدالله بن عبدالعزيز القاضية باعتراف الدول العربية باسرائيل في مقابل انسحابها من الاراضي العربية المحتلة الى خطوط 4حزيران 1967، واصفين القمة بأنها الفرصة الاخيرة لانقاذ عملية السلام مع اسرائيل.

أما المواقف داخل القمة فبانت بشفافية من خلال إعلان وزير الخارجية السوري فاروق الشرع ان بلاده لن تخرج عن اي مبادرة يتم الاتفاق عليها في القمة، كما تجلت ايضاً في كلام وزير الدولة الكويتي للشؤون الخارجية ورئيس الدورة الشيخ محمد السالم الصباح الذي قال ان على العرب ان يعطوا هذه الفرصة الاخيرة للقيادة الاسرائيلية على ان يفهم هؤلاء انهم باتوا عند مفترق طرق وعليهم ان يختاروا بين السلام والدمار.

اما الامين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى فقال انها حقاً الفرصة الاخيرة لانقاذ السلام. ورفض الاجابة عن سؤال عن الاجراءات التي يمكن للعرب اتخاذها اذا رفضت اسرائيل المبادرة السعودية، متسائلاً بغضب: لماذا يجب علينا ان نجيب عن مثل هذا السؤال. لماذا نستبق الأمور اننا نعطي رسائل واضحة للبعيد والقريب وأضاف كاشارة الى علانية المواقف العربية ان الاجتماع وافق على توصية القمة العربية بصرف 55مليون دولار شهرياً للسلطة الفلسطينية اعتباراً من نيسان، على ان يجدد الصرف تلقائياً ما استمر العدوان الاسرائيلي، علماً انه بالاضافة الى ذلك وجهت دعوة الى الدول العربية لتقديم 150مليون دولار اضافية لصندوق القدس.

كان السؤال الرائج في الصحف هو: هل تكون قمة بيروت قمة مبادرة الامير عبدالله، أم ستكون قمة ياسر عرفات. فرجحت التكهنات القائلة بانها قمة الاثنين، لا الواحد دون الآخر. والأهم انها قمة الطرح الصادق وربما للمرة الاولى في تاريخ قضية كثيراً ما أضر بها التطرف الكلامي المنطوي على نفَس قصير في العمل السياسي اتسمت به مسيرة قرن بكامله من التجاذب بين الدعوة الصهيونية للانفراد بفلسطين والتمسك العربي والعربي الاسلامي والعربي المسيحي بأحد شرايين القدرة على المحافظة على الوجود.

على انه مهما كان الشكل الاولي والمرحلة الاولى للدولة الفلسطينية، فمن المفروض ان تأخذ هذه الدولة في النهاية الحجم الذي يستدعيه حقها وعدد اهاليها. اذ انه من غير المعقول، لا بل من المستحيل ان يكون للشعب الفلسطيني دولة يبقى خارجها مئات الألوف من هذا الشعب، بأية صفة كان، تحول دون عودتهم حدود اسرائيلية مهما كان عمقها. ومن ثم يصبح من الطبيعي ان تنهار الحواجز التي قد تفصل بين الدولة الفلسطينية والقسم المتروك من الشعب الفلسطيني خارجها. وبذلك يبدو عدم التوطن ليس رغبة لبنانية او فلسطينية فحسب، بل من حتميات المستقبل.